

-وبَعْضُ الْفَوَائِدِ الْعِلْمِيَّةِ-



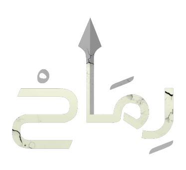
تَأْلِيفُ:
أَبِي مُعَاذٍ الشَّمَّرِيِّ

الْمَنْهَجُ الْعِلْمِيُّ لِطُلَّابِ الْعِلْمِ الْشَّرْعِيِّ

-وَبَعْضُ الْفَوَائِدِ الْعِلْمِيَّةِ-

تَأْلِيفُ:

أَبِيْ مُعَاذٍ الْشَّمَّرِيِّ



إِنْتَاجُ: مُؤَسَّسَةِ رِمَاحٍ الإِعلَامِيِّة | ١٤٣٩ هـ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي خلَق الإنسان وعلمه والبيان، وأقام الحجَّةَ عليه بالسُنَّة بعد القرآن، والصلاة والسلام على سيدِ ولد عَدنان، وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان؛ ثم أما بعد:

فالعلم هو النور الذي يضيء للإنسان طريقه، ويهديه إلى طريق الصّواب والرشاد الذي ضلَّ عنه أكثر الناس وتاهوا في ظلمات الجهل والبدع...

العلـمُ نــورٌ مبينٌ يسـتضـيء به — أهلُ السعادة والجهّال في الظُلَـمِ
العلـــم أعْلَى حياةً للعباد كما — أهــلُ الجهــالةِ أمــواتٌ بجهلهمِ
لا سَمْع لا عَقْل بل لا يُبْصِرونَ وفي الـ — سَعِيـــرِ مُعْتَـــرِفٌ كُلٌّ بِذَنْبِهِمِ
فالجَهْلُ أَصْـلُ ضَلَالِ الخَلْقِ قاطِبَةً — وأصْـــلُ شَـقْوَتِهِمْ طُرّاً وظلمهم
والعِلْمُ أصْـلُ هُداهُـمْ مَعْ سَعادَتِهِمْ — فلا يَضِـلُّ ولا يَشْـقى ذَوُو الحِكَمِ
والخَوفُ بالجهْلِ والحُزْنُ الطويلُ بِهِ — وعَن أُولِي العِلْمِ مَنْفِيَّانِ فَاعْتَصِـمِ

وقد قام الإسلام في أول أمره على العلم ثم العمل فجاء العلم قبل العمل قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، ثم جاء الأمر بالعمل ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ٢-٣]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، فبدأ بالعلم أولًا، وقد بوَّبَ الإمامُ البخاري رحمه الله باب [الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ]، فالعلم مبتدأ كل أمر، فلا يصلح القول إلا إن كان على علم، ولا يصلح العمل إلا إن بُني على علم، فالعلم أساس العمل والقول الصواب. وإلا كانت الأعمال والأقوال كلها باطلة إن لم تعتمد على ما جاء به الشرع المطهر.

أما الأحاديث والآثار التي جاءت في فضل طلب العلم، فإنها أكثر من أن تعد وتحصى، ولعلي أسوق حديثًا يُلخِّص كل ما جاء في هذا الباب، فعن قيس بن كثير قال: «قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق فقال ما أقدمك يا أخي؟ فقال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله ﷺ. قال: أما جئت لحاجة؟! قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟! قال: لا. قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث. قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من سلك طريقا يبتغي فيه علما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاء لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر

الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر)[1]».

ولأجل ما تقدم قرّرت أن أكتب في هذا الشأن وأضع لطلاب العلم وأهل الهمم برنامجًا علميًا يسيرون عليه في طلبهم العلم مع بعض الفوائد التي قد تنفعهم وتُسّهل عليهم الطريق، راجيًا به الثواب من رب الأرباب.

بداية الطلب:

لابد أن يمر القارئ أو طالب العلم المبتدئ بمرحلة "تأسيس علمي" ينمي بها أفكاره وقدراته على الاستيعاب، فيتعلم المفردات العلمية وكيفية بناء الجمل؛ وكيفية استنباط الأحكام وأنواع الأدلة والتفريق بين النص والظاهر والمفسر والمحكم كذا الخفي والمجمل والمشكل والمتشابه ويتعلم معاني المصطلحات العلمية، وذلك يكون من خلال قراءة المتون والكتيبات المختصرة في علوم الآلة، والأصل أن يقرأ كل كتاب على شيخ متخصص في الفن أو طالب علم متقدم، فإن لم يتيسر ذلك فيستمع إلى الشروحات الصوتية من خلال النت وأن تكون لعلماء أو طلبة علم عرفوا بالمنهج السليم، فإن لم يتيسر ذلك أيضًا فيستمع للمبتدعة الذين وافقوا الصواب في تلك المسألة والاستماع إليهم يكون آخر الحلول. كذا لابد من أن يتواصل على الاقل مع طالب علم مجيد ليطرح عليه ما استشكل عليه فيزيل عنه الاشكال ويسترشد به، ويظل على ذلك حتى يلمّ بعامة مسائل تلك العلوم إلمامًا يناسب مرحلته الابتدائية، ثم ينتقل بعد ذلك انتقالًا صحيحًا إلى مرحلة المتوسّطين.

أما إذا غاص مباشرة في الموسوعات وعلوم الغايات من قبل أن يضبط علوم الآلة ويقرأ المتون والمختصرات ويتعلم ما يؤهله لفهم تلك العلوم، فسيُحمّل نفسه ما لا طاقة لها عليه وسيكون مآله الحتمي التيه والتشتت والاضطراب، وسيضيع جهده ويذهب ذهاب الريح.

دراسة علم العقيدة:

إن علم العقيدة من أهمّ علوم الشرع الحنيف الذي يهتم بدراسة ألوهية الله وربوبيته وأسمائه وصفاته ومسائل الإيمان. إلخ من أمور الاعتقاد.

---

[1] أخرجه الترمذي برقم: (٢٦٨٢).

ولابد من تقديم هذا العلم على غيره من العلوم لامتزاجه القوي بحياة العبد ولأن الجهل ببعض أموره ومباحثه أو الخطأ قد يؤدي بصاحبه إلى الكفر أو الإشراك بالله تعالى، لذا وجب تقديمه على غيره، خاصةً في زماننا هذا.

وتمر دراسة علم العقيدة بثلاث مراحل:

مرحلة ابتدائية: وهي المرحلة الابتدائية التي يعتمد بها الطالب على كتب المعاصرين كالشيخ علي الخضير والشيخ ناصر الفهد والشيخ فارس الزهراني والشيخ أبي عبد الله المهاجر وغيرهم ثم كتب أئمة الدعوة النجدية ككتاب "الأصول الثلاثة" و "القواعد الأربعة" و "نواقض الإسلام" وإدمان النظر في كتاب "فضل الإسلام" للشيخ محمد بن عبد الوهاب و "كتاب التوحيد" الذي لا يسع طالب العلم تركه، و "أعلام السنة المنشورة "، و "معارج القبول" للحكمي ﷺ.

فيعرف الطالب بهذه المرحلة أصول اعتقاده الصحيح بأدلته التفصيلية، ينظر في كل مسألة، ويتصورها، ثم إتقان أصول دراسة المسائل، والإلمام بعامة مسائل العلم الذي يدرسه. ثم النظر إلى الأدلة وحفظها كحفظ الطالب لاسمه واسم أبيه!، ويفهم المصطلحات فيبني بذلك أساسًا علميًا، ولذلك سُميت هذه المرحلة بـ [مرحلة التأسيس العلمي].

المرحلة المتوسطة: وهي مرحلة [البناء العلمي] يدرس في هذه المرحلة الفرق الضالة والشبهات التي تستند إليها مذاهبهم وأصولهم مع نقدهم والرد عليهم.

ويعتمد الطالب بهذه المرحلة بعد الله ﷻ على كتب شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما من أئمة أهل السنة المتأخرين ﷺ الذين هم من "أهل السنة المحضة" فلم يتلوثوا بلوثات التأويل أو التعطيل أو الإرجاء أو تأثروا بالفلسفة والكلام، من الذين بيّنوا أصول الفرق الضالة وانتقدوا مقالاتهم، وكتب شيخ الإسلام على وجه الخصوص بها الخير العظيم فيما يخص هذا الشأن، وكل من تكلم بعد شيخ الإسلام هو عالة على كتبه ومؤلفاته –ﷺ رحمة واسعة– ومن أهم تلك الكتب: (الواسطية والحموية لشيخ الإسلام والسفارية لأحمد السفاريني والتدمرية لشيخ الإسلام ثم الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة واجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية للإمام ابن القيم ﷺ).

المرحلة المتقدمة: وهذه [مرحلة الانطلاقة العلمية] التي يكون فيها الطالب مؤهلًا للنظر في كتب الأئمة المتقدمين الذين قرروا مسائل الاعتقاد ويكون مؤهلًا لتحقيق المسائل والترجيح بين الأقوال.

ومن أهم كتب المتقدمين أو التي شرحت منهجهم: "أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي"، "الإبانة الكبرى لابن بطة"، "الشريعة للآجري"، "السنة للخلال"، "السنة لعبد الله بن أحمد"، "شرح السنة للبربهاري". هذه من أهم الكتب التي يعتمد عليها أهل السنة في مبحث الاعتقاد.

وهنا استوقفني أمر هام لابدّ من التنبيه عليه ألا وهو لابد من ملازمة شيخ يشرح للطالب المسائل ويسهلها عليها، ويزيل عنه الإشكال، ويوضح له العبارة المشكلة ويبيّن له خطأ المؤلف إن أخطأ في موضع، فإنه كما قيل: من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه. وإن كان ممن يصعب عليهم الوصول إلى أهل العلم الربانيين بسبب قلتهم أو بعدهم فلا يعجز حينئذ عن السماع إلى شروحاتهم الصوتية على شبكة الإنترنت، والتواصل مع بعضهم عبر الانترنت لطرح ما أشكل عليه.

دراسة الحديث:

يبدأ الطالب بمتن "الأربعين النووية" المبارك مع زيادات ابن رجب ﷺ حفظًا واستيعابًا، ثم حفظ أحاديث "عمدة الأحكام"، وقراءة شرحها تيسير العلام للبسام، ثم "بلوغ المرام"، ثم يبدأ بحفظ الأحاديث المتفق عليها بين الصحيحين، ثم حفظ ما انفرد به البخاري، ثم حفظ ما انفرد به مسلم، وينتقل بعدها إلى حفظ زوائد الكتب الستة.

دراسة مصطلح الحديث:

علم مصطلح الحديث هو علم يُعرف به حال السّند والمتن من حيث القبول والرد، ومن خلاله يتعرف الطالب على المصطلحات الحديثية التي وضعها أهل العلم فيستطيع التمييز بين الحديث الصحيح من الضعيف المعلول...، يبدأ الطالب بمصطلح الحديث بـ "البيقونية" حفظًا وفهمًا، ثم "منظومة قصب السكر للصنعاني"، ثم "نزهة النظر لابن حجر" و "الموقظة للذهبي" ثم "إرشاد طلاب الحقائق للنووي" ثم "الباحث الحثيث لابن كثير" مع شرحه.

دراسة الفقه:

دراسة الفقه على طريقة بعض المعاصرين الذين يكتفون بالكتب الحديثية ككتاب "عمدة الأحكام" أو "بلوغ المرام"، هذه الطريقة لن تبني ملكة فقهية لطالب العلم!، بل إن من أراد رسوخًا في الفقه لابدّ حينئذ من أن يتمذهب أولًا ثم إذا ضبط المذهب وحفظ أدلته ينتقل إلى دراسة الفقه المقارن ويطلع على اختلاف الفقهاء.

فيدرس مختصرًا من مختصرات المذاهب كمختصر الخرقي عند الحنابلة فيحفظه، ثم ينتقل لمرحلة أعلى فيدرس الزاد مثلًا. فاذا أتقن المذهب وحفظه المسائل بأدلتها، يبدأ بدراسة أصول الفقه، ولابدّ من دراسة الأصول التي ستؤهله للنظر والترجيح بين أقوال الفقهاء فيما بعد، وهذه أيضًا –أي: مرحلة دراسة الأصول– يتدرج بها فيبدأ بـ "رسالة السعدي" مثلًا، ثم "روضة الناظر وجنة المناظر لابن قدامة" ثم "التحرير للعلاء المرداوي"، فاذا ضبط الأصول يطلع على الفقه المقارن ويقرأ أقوال المذاهب ويبدأ بالترجيح، إذا التزم هذا البرنامج وأتمه يكون فقيهًا إن شاء الله.

أما الدراسة العشوائية والاعتماد على الكتب الحديثية فقد تصنع مثقفًا، لكن طالب علم؟ لا أظن!

دراسة أصول الفقه:

أصول الفقه صيغت بأساليب وطرائق متعددة، لا على طريقة واحدة!، فلكل مذهب قواعد وآراء أصوليّة تميّز بها عن غيره، وذلك الاختلاف الأصولي أنتج اختلافًا وتباينًا فقهيًا، ولعله من أبرز أسباب اختلاف المذاهب الفقهية –التي جُمِعَتْ في كتاب "رفْع الملام عن الأئمة الأعلام" لابن تيمية ﵀.

ومن أهم مراجع الأصول عند الحنابلة: "الكوكب المنير" للفتوحي و "العدة" لأبي يعلى و "روضة الناظر" للموفق ابن قدامة وكذلك "التحبير" للمرداوي. وعند الأحناف "أصول السرخسي" و "ميزان الأصول" للسمرقندي، و "أصول البزدوي". وعند المالكيّة: "الموافقات" للشاطبي، و "المحصول في أصول الفقه" لأبي بكر بن العربي. وعند الشافعية: "الرسالة" للشافعي، و "الإحكام في أصول الأحكام" للآمدي، و "إرشاد الفحول" للشوكاني.

ملاحظة: كتب "أصول الفقه" التي صنفت على طريقة أهل السنة والجماعة والسلف في الاستدلال والاستنباط قليلة جدًا، وأكثر كتب أصول الفقه دُسَّت فيها دسائس كثيرة من علم الكلام وتشقيقاته

وأُدخل في هذا العلم ما ليس منه، حتى عزت الكتب ذات المنهجية السليمة في هذا العلم، لذا: فلابد لطالب العلم قبل أن يقرأ كتابًا في "أصول الفقه" أن يعرف منهجية الكتاب ومذهب المؤلف، لكي يسلم من لوثات علم الكلام والمنطق التي أبتلي بها الكثير من المتأخرين والمعاصرين.

الفقه وأصول الفقه:

"علم الفقه": باختصار: هو مجموعة من الأحكام الشرعية العملية المستفادة من خطاب التكليف الشرعي المتعلق بفعل المكلف، بما يقتضي الوجوب أو التحريم أو الندب أو الإباحة.

أما "علم أصول الفقه" فهو علم يستعان به على التوصل إلى معرفة الأحكام الشرعية الفقهية، أو: هو مجموعة من القواعد والأصول التي يتوصل بها الفقيه إلى الحكم الشرعي في المسألة، كالقاعدة الأصولية "الأمر يقتضي الوجوب" فإن رأى الفقيه [أمرًا] من الشارع على مسألة حكم بوجوبها، ما لم يأت صارف يصرف ذلك النص عن ظاهره.

إذًا: الفقيه يبحث في الأحكام الشرعية المتعلقة بالمكلف، كأحكام صلاته، صيامه، زكاته، إجارته، والأصولي: يبحث بالدليل الكلي الذي تثبت به الأحكام الشرعية كما تقدم. فلا يكون الفقيه فقيهًا مجتهدًا حتى يكون أصوليًا ملمًا بالقواعد الكلية وأصول الاستنباط التي يتوصل بها إلى استفادة الأحكام الشرعية العملية.

ومن هنا كانت أهمية علم "أصول الفقه" الذي لا يستغني عنه مجتهد لفهم الأدلة الكلية وكيفية استنباط الحكم الفقهي ولا قاض لتطبيق الأحكام وفق تلك الأصول ليحقق المقصد الشرعي، بل ولا يستغني عنه طلاب العلم عمومًا، إذ من فوائد دراسة "أصول الفقه": تدريب العقل على التدليل والمقارنة والترجيح، وسرعة الاستنتاجية، وغير ذلك من ضروب العمل التعليلي المنطقي، وبناء شخصية متزنة تعرف كيفية التعامل مع النصوص الشرعية.

دراسة النحو:

إن كنتَ مُبتدئًا في علم النحو ولا تملك أُسسًا لهذا العلم فدونك "متن الآجرومية"، فهو من المتون المباركة الممتازة للمبتدئين، فإن ضبطته ضبطًا مُتْقَنًا فانتقل بعده للأعلى منه كـ "ملحة الإعراب للحريري"، ثم "قطر الندى لابن هشام"، ثم في نهاية المطاف "ألفية ابن مالك"، فإن ضبطت الألفية

فقد أخذت بحظ وافر من علم النحو وصرت من أهله. ولهذه المتون شروحات صوتية على اليوتيوب بإمكانكم أن تستمعوا إليها.

وإن أردت تقويم اللسان وضبط مخارج الحروف فلن تكفيك الدراسة النظرية للنحو حينئذ، بل لابد من كثرة السماع للخطب والمحاضرات والقراءة، فإن القارئ في كتب الأدب والشعر يستقيم لسانه، ثم تأتي دراسة علم النحو المنهجية لتتمّ التقويم.

فوائد وإرشادات

نصيحة لطالب العلم:

نصيحة لكل مقدم على طلب العلم: عليك بكتب آداب طلب العلم وضوابطه، قبل أن تلج الباب، فلا تخض بحر العلم دون أن تقرأ كتب آدابه، ودونك أهم ما صنف في هذا الباب: "جامع بيان العلم وفضله" لابن عبد البر، "تذكرة السامع والمتكلم" لابن جماعة، "الفقيه والمتفقه" للخطيب البغدادي، "حلية طالب العلم" لبكر بو زيد.

نصيحة ثانية:

لا تستعجل في طلب العلم، بل ركز وكرر، لأن غايتك في الطلب ليس التصدر وإنما التعبد لله برفع الجهل عن نفسك، ثم رفعه عن الآخرين، والمستعجل لابد وأن تكون نيته دخيلة لأنه يرغب الظهور والتصدر، وسيفوته الاثنين فلا التأصيل حصل ولا التصدر نال.

نصيحة ثالثة:

إخوتي الأفاضل.. إن أردتم الرد على قول من أقوال المبتدعة على وجه العموم، فانظروا أولًا هل القول مشتهر أم لا؟ فإن كان غير مشتهر فاعملوا حينئذ بقاعدة: [أميتوا الباطل بالسكوت عنه]، وإن كان مشتهرًا فاكتفوا بالرد على [القول] من غير ذكر لقائله "إلا إذا دعت الحاجة إلى التحذير منه". أو أهملوا قوله واكتفوا ببيان ما يناقض بدعته، فإنما الضد يُعرف بضده، فإذا أشرقت شمس الفجر بطل الليل وما عاد النهار يفتقر إلى استدلال، وإذا عُرف الحق بطل الباطل، ذلك أحسن وأقوم، ففيه درء لمفاسد القيل والقال وإشغال المسلمين بما لا ينفعهم ولا يزيدهم إلا شتاتًا، والله أعلم.

خطأ شائع فاحذره!

من الأخطاء التي تشيع عند بعض طلبة العلم أنهم يقضون الأوقات الطوال في تكرير سماع شروحات المتون المختصرة على أكثر من شيخ، فتضيع بذلك أعمارهم وما يحصّلون شيئًا من العلم، فلا بد أن تكون فترة دراسة المتون فترة مرحلية الغرض منها تعلم أصول العلم وأساسياته ومفرداته وضبط علوم الآلة فيبني أساسًا علميًا جيدًا يستعان به بعد الله تعالى على فهم علوم الغاية، ثم بعد

ذلك ينتقل إلى القراءة الذاتية وجرد المطولات وتحقيق المسائل في كتب المتأخرين والمتقدمين، مع الرجوع للعلماء وطلبة العلم إذا طرأ عليه استشكال فيزيلوه عنه ويضعوا له منهجًا منضبطًا في البحث والقراءة.

ينبغي ألا تُعطى المختصرات أكثر من حقها!

ينبغي ألا تُعطى المختصرات أكثر من حقها فالذين يتوسعون في المختصرات ويطيلون في شرحها وبسط معانيها إنما هم بذلك قد خرجوا وبعدوا عن غرضها الذي ألفت بتلك الطريقة المختصرة الميسرة لأجله، وهو: التخفيف على الطالب والتدرج معه، مراعاةً لمرحلته الابتدائية وتجنبًا للسأم الذي قد يصيبه! فالآجروميّة مثلًا... كتاب يسير صغير لا تتجاوز صفحاته العشر، إلا أن بعضهم شرحه بستين درسًا!، وكأنه يريد أن يستعرض عضلاته على هذا الطالب المبتدئ! غير مراعٍ لابتدائيته! وهذا بالطبع سيجلب السأم والنفور لطالب العلم!!

لذلك فالإطالة بشرح المختصرات غير محمودة البتة، وينبغي أن يراعى التدرج في الكم والسلّم العلمي. ومقصدي من كل ما تقدم: أن يا طالب العلم لا تُثقل على نفسك ولا تختر السلاسل الطويلة وأنت في مرحلتك الابتدائية بل اختر ما يتناسب معك، كذا وآتِ السُلم من أوله ثم اصعده سلمة سلمة، ولا تقفز مرة واحدة لأعلى سُلمة فتقتحم المطولات والموسوعات وتنظر في الخلافيات وأنت قد تركت سُلمات كُن سيؤهلنك لصعود هذه السلمة التي رمت الصعود إليها، فحينها يُخشى عليك السقوط من السُلّم فيتلقفك منه التيه والاضطراب ويكون مآلك الخسران!!

وقت طالب العلم:

الوقت لطالب العلم هو من أغلى ما يملك، فيجب أن يحرص تمام الحرص على أن يستثمر كل دقيقة تمر في طلب العلم، وألا يسرف في الوقت ويضيعه في الأمور التي لا تعود عليه بنفع، فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها، فلابد أن يقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة والعوائق المانعة عن طلب العلم والملهيات وإدارة الوقت وترتيب الأولويات الأولى فالأولى؟ كان بعض السلف ﷺ يتمنون لو أن الوقت يُباع في السوق فيشتروه لطلب العلم!!

احْذَرْ:

الأصل ألا يتكلم العبد إلا في حدود علمه ومعرفته وأن يتعلم المسائل ويضبطها ضبطًا صحيحًا تامًا قبل التحدث بها والخوض في غمارها مهما صغرت، وهذا ما قرره السلف والخلف وأجمع عليه

المسلمون على مرِّ العصور، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٦-١١٧]، فإن كان هذا يشمل أبسط المسائل فما بالكم بمُدلهمّ المسائل وخطير القضايا؟

ولعل من أبرز تلك المسائل هي مسألة التكفير التي ترأس الكثير من الجهال الكلام بها فقرروا ما تراه عقولهم ووافق هواهم دون أدنى علم وبصيرة، ولقد رأيت منهم كما رأى غيري من الجرأة على التوقيع عن رب العالمين والإفتاء بالتلذذ والتشهي والهوى الشيء الخطير! وقد يستدل الواحد منهم بأدلة ونصوص لا يعرف عمومها من خصوصها، ولا مطلقها من مقيدها، ولا مقتضى الأمر والنهي... إلخ.

كان السلف ﷺ إذا استُفتوا يتدافعون الفتيا ورعًا ووجلًا كل واحد منهم يتمنى لو أن أخاه كفاه، ثم يتهافت إليها اليوم الجهلاءُ المتفيقهون شهوةً وسُمعةً ورياءً!!

ليس عيبًا أن تخطئ:

ليس عيباً أن تخطئ! ولِمَ العيب؟ فالخطأ صفة ملازمة لكل إنسان دون المعصوم ﷺ فلا يسلم من الخطأ أحد البتة! وإنما العيب في أن تكون معاندًا مستكبرًا عن الحق مستنكفًا عن الاعتراف بغلطك أو أخذ الحق ممن هو دونك أو فوقك. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (ما أخشى عليكم الخطأ ولكن أخشى عليكم التعمّد) [٢].

ورحم الله ابن الوزير اليماني حين قال: «القَاصِدُ لِوَجهِ اللّه لَا يَخَافُ أَن يُنقَدَ عَلَيهِ خَلَلُ فِي كَلَامِهِ، وَلَا يَهَابُ أَن يَدُلَّ عَلَى بُطلَانِ قَولِهِ، بل يُحِبُّ الحَقَّ مِن حَيثُ أَتَاه، وَيَقبَلُ الهُدَى مِمَّن أَهدَاه، بَل المخَاشَنَةُ بالحقّ والنصيحة أحب إليه من المداهنة على الأقوال القبيحة، وصديقك من أصدقك لا من صدقك» [٣].

خطر الإفتاء بغير علم:

---

[٢] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان برقم: (٩٨١٠) ورقم: (٩٨٣٢)، وابن حبان في صحيحه برقم: (٣٢٢٢) و (٣٢٢٦)، والحاكم في "مستدركه" برقم: (٣٩٧٠)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي».

[٣] العواصم والقواصم.

كان الصحابة والتابعون ومن جاء من بعدهم -رضي الله عنهم جميعًا- وهم الفقهاء، الفصحاء، البلغاء، يتدافعون الفتوى ويود أحدهم أن لو أخاه كفاه، أما في سنواتنا الخدّاعات هذه فيتدافعون على الفتوى! ومَن؟! جهلة القوم ورعاعهم!! فما أجرأهم وأجسرهم على الله!

خطر التكفير بالهوى:

من كفر مسلمًا بلا تأويل يقع في الكفر الأكبر المخرج من الملة!! قال شيخ الإسلام: «تكفير المؤمن كفر، كما قال النبي ﷺ: (إذا قال الرجل لأخيه: يا كافر، فقد باء بها أحدهما) ومع هذا إذا قالها متأولًا لم يكفر»[٤]. فمن كفَّرَ مسلمًا بناءً على هوى أو خصومة وقعت بينهما أو حقد أو غل أو حسد فليعلم بأنه قد وقع في ناقضٍ من نواقض الإسلام وكفَرَ لظاهر قول النبي ﷺ: «أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»[٥]، فليجدد إسلامه وليمسك عليه لسانه وقلمه.

عبادة العلماء والتقليد الأعمى:

ابتلي البعض من طلبة العلم بداء التعصب والتقليد الأعمى لبعض الرجال الذين جعل الحق محصورًا فيهم، فلا يخرج عن أقوالهم وآرائهم وإن تبيّن بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة أن قولهم في هاتيك المسألة قول خالف قول الله ورسوله!

ولئن قلت لأحد المتعصبين لذلك الشيخ: أخطأ الشيخ في هذه المسألة!، ثم سردت له الأدلة من الكتاب والسنة، فما تجد منه إلا أن عبس وجهه وقال: أأنت أعلم من الشيخ فلان؟! ثم أقام الدنيا ولم يقعدها، وكأن ذلك الشيخ قد عُصم من الخطأ! وهذا بالطبع ليس من متابعة أهل العلم وليس التقليد الذي أجازه أهل العلم "بضوابطه الشرعية" البتة، وإنما هذا هو عين ما وقع به بنو إسرائيل من عبادة وتقديس للأحبار والرهبان! قال الربيع بن أنس: «قلت لأبي العالية: كيف كانت الربوبية في بني إسرائيل؟ قال: كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا: لن نسبق أحبارنا بشيء، فما أمرونا به ائتمرنا وما نهونا عنه انتهينا لقولهم، فاستنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم»[٦].

---

[٤] منهاج السنة النبوية (ط جامعة محمد بن سعود (٤/ ٥٠٥)).

[٥] متفق عليه، عند البخاري برقم: (٦١٠٣) و(٦١٠٤)، وعند مسلم برقم: (٦٠)، وعند الترمذي برقم: (١٣٢٤)، وأحمد (٣١٤٦).

[٦] رواه ابن جرير في جامع البيان (ط هجر (١١/ ٤٢٠)).

فطاعة العلماء عندنا نحن معشر أهل السنة والجماعة ليست لذواتهم وأشخاصهم وإنما لما قام فيهم من العلم بالله ورسوله، فإن أخطأوا وخالفوا النص الشرعي فلا طاعة ولا اتباع لهم علينا، وهذا هو الفارق بين اتباع عوام المسلمين وطلبة علمهم للعلماء، وشرك الطاعة وعبادة وتقديس بني إسرائيل لذوات الأحبار والرهبان.

فالطاعة المطلقة هي لله ولرسوله فقط! وكل عالم يؤخذ قوله إن وافق به الكتاب والسنة ويرد عليه إن خالف به الكتاب والسنة!

تأَمَّـلْ:

إن أصل التزام العبد في جميع عباداته وطاعاته لله تعالى إنما هو [الخوف منه ﷻ] وذلك يكون من خلال معرفته ومعرفة ما يملكه ﷻ من قوة وحكمة وقدرة كبيرة تفوق تصور وإدراك العقل البشري، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن كثير: «إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به؛ لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»[٧] قلت: ويُمكن لأي انسان أن يستشعر تلك العظمة والحكمة والقدرة والقوة من خلال التفكر في آياته ويكفي الانسان حتى يعرف عظمة الله ﷻ أن يتفكر في كيفية خلقه.

فحينما يتأمل أحدنا بنفسه وينظر إلى هيئته الجسمانية يعجب من قدرة الله –سبحانه– كيف خلق العين ورزقه النظر، الأنسجة والشرايين كيف سيرها في الإنسان بنظام دقيق جدًا لكل منها عمل خاص به، الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي والجهاز العصبي والجهاز المناعي والجهاز الهيكلي العظمي، ثم بعد هذا الخلق والتصوير والإبداع العظيم لم يتركه ويخلقه هملًا –حاشاه– بل اقتضت حكمته –سبحانه– أن شرّع له من الأحكام ما تتحقق بها مصالحه وتكفل ضرورياته وتوفر حاجياته، فشرع له ما يحفظ عليه دينه ونفسه وعقله وعرضه وماله، وجعل لكل واحدٍ من هذه الخمس جملة من الأحكام تكفل إيجاده وتكوينه وتكفل حفظه وصيانته، فالدين شرع لإقامته إيجاب التوحيد والإيمان وما يترتب عليهما ويترفع منهما من أحكام، وشرع لحفظه وكفالة بقائه الجهاد ومحاربة من يقف عقبة في سبيل الدعوة إليه ومن يفتن الناس وعقوبة قتل المرتد وقتل المبتدع. والنفس شرع لإيجادها الزواج والتولد

---

[٧] انظر تفسير ابن كثير (ط العلمية (٦/ ٤٨٢)).

والتناسل ولحفظها شرّع إيجاب تناول ما يقيمها من ضروري الطعام والشراب واللباس وإيجاب القصاص والدية والكفارة وتحريم الإلقاء بها إلى التهلكة وإيجاب دفع ضرر الصائل والمعتدي عليها. والمال شرع لتحصيله إيجاب السعي للزرق وإباحة المعاملات والتجارة والمضاربة، وشرع لصونه وحمايته تحريم السرقة وحد القطع، وتحريم الربا والغش وأكل أموال الناس بالباطل وإتلاف مال الغير وتضمين من يتلف مال غيره، والعقل شرع لصونه وحفظه تحريم المسكر والمخدر، والعرض شرع لصونه تحريم الزنا وإيجاب الستر والحجاب وتحريم التبرج والسفور والاختلاط والتحدث مع الأجنبي، وشرع أحكامًا في مختلف أنواع العبادات والمعاملات والعقوبات تقصد إلى كفالة ما هو ضروري للناس بإيجاده وحفظه وحمايته، وبهذه الأحكام تنتظم حياة الإنسان وتتحقق مصالحهم، وإذا ما أهملت أو تُركت عمت الفوضى وضاعت الحقوق وانتشر الفساد كما هو حاصل الآن.

فتأمل يا عبد الله! تأمل بعظمة وقدرة وحكمة خالقك، فسيثمر لك ذلك التأمل التذلل له والخشية منه.. قيل: «من عرف عظمة الله حق المعرفة، لم يكن له بد إلا أن يخشى ربه» ومن ثمرات التأمل بعظمة وقدرة الله هي: محبة الله تعالى، قال ابن القيم ﷺ: «من تأمل أسماء الله وصفاته وتعلق قلبه بها طرحه ذلك على باب المحبة، وفتح له من المعارف والعلوم أمورًا لا يعبر عنها»[٨]، وقال ابن الجوزي: «فينبغي الاجتهاد في طلب المعرفة بالأدلة، ثم العمل بمقتضى المعرفة بالجد في الخدمة لعل ذلك يورث المحبة... ذلك الغنى الأكبر، ووافقراه»[٩].

فإذا شمر العبد إلى تلك المنزلة ورام الوصول إليها وتأمل بعظمة الله وقدرته وحكمته أشغل حب الله كل مساحة قلبه وخلى منه كل ما عداه، قال ابن القيم: « لم يكن شيء أحب إليه منه، ولم تبق له رغبة فيما سواه إلا فيما يقربه إليه ويعينه على سفره إليه»[١٠] ربنا ما خلقت هذا باطلًا سُبحانك فقنا عذاب النار.

رَفعُ الملامِ عَن أَهْلِ العِلمِ الكِرامِ:

إن الخطأ في اللغة أو الإعراب أو الوقوع في اللّحن لا يقدح في علم العالم أو طالب العلم دام أن أصوله سُنيةٌ سليمةٌ ، فالكلام والإعراب إنما هو قالب للجوهر والعبرة ليست بالقالب وإنما بالقلب

[٨] مفتاح دار السعادة (ط العلمية (١/ ٢٨٦)).

[٩] انظر صيد الخاطر لابن الجوزي (ط القلم (١/ ١١٠).

[١٠] روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ط العلمية (١/ ٤٠٦)).

الذي يحوي الجوهر ألا وهو المنهج السليم والعقيدة الصحيحة، وليس كما يفعل الجهلة والمتَفَيْقِهُونَ الذين يطيرون فرحًا إذا سمعوا خطأً لغويًا أو نحويًا صدر من عالم أو طالب علم، فيرموه بالجهل ويجعلون اللّحن عيبًا يوجب القدح في ذلك العالم أو طالب العلم ويزعمون بعدم أهليته للتصدر للكلام في المسائل الشرعية، ولو عملنا بمقولة أولئك المتعالمين لم يسلم أحدٌ من علماء الشريعة ولا فُحُولُ اللّغة العربية حتى!، قال الإمام ابن قتيبة: «ولا أعلم أحدًا من أهل العلم والأدب إلاَّ وقد أُسقط في علمه كالأصمعيّ وأبي زيدٍ وأَبي عُبَيْدة وَسيبويْه... وكالأئِمَّةِ مِن قرَّاء القرآن والأئمَّة من المفسِّرين قد أخذ النَّاس على الشُّعراء في الجاهلية والإسلام الخطأ في المعاني والإعراب وهم أهل اللُّغة وبهم يقع الاحتجاج فهل أصحاب الحديث إلاَّ كصنفٍ مِن النَّاس»[١١]، وقال الإمام الحافظ الخطيب البغدادي في كتابه "الكفاية في علم الرواية" بإسناد صحيح عن أبي عبد الرحمن النَّسائيّ أنَّه قال: «لا يعاب اللَّحن على المحدّثين فقد كان اسماعيل بن أبي خالد يلحن وسفيان ومالك بن أنس وغيرهم من المحدِّثين»[١٢].

وهذا أبو حنيفة النعمان ﷺ الذي قال فيه الإمام الشافعي: «الناس في الفقه عيال أبي حنيفة»[١٣]، كان كثير اللحن والخطأ في اللغة وتواتر هذا عن أبي حنيفة ﷺ، أخرج الخطيب في الفقيه والمتفقه بإسناده إلى المازني قال: «سمع أبو عمرو أبا حنيفة يتكلم في الفقه ويلحن! فأعجبه كلامه واستقبح لحنه، فقال: إنه لخطاب لو ساعده صواب! ثم قال لأبي حنيفة: إنك أحوج إلى إصلاح لسانك من جميع الناس»[١٤]، وأخرج الخطيب أيضًا في كتاب الفقيه والمتفقه عن الأصمعي قال: «ما هبتُ عالماً قطّ ما هبتُ مالكًا حتى لحنَ فذهبت هيبته من قلبي، وذلك أنني سمعته يقول: مُطرنا مطرًا وأي مطرًا. فقلتُ له في ذلك، فقال: كيف لو قد رأيتَ ربيعة بن أبي عبد الرحمن؟ كنا إذا قلنا له كيف أصبحت؟ يقول: بخيرًا بخيرًا... وإذا مالك قد جعل لنفسه قدوةً يقتدي به في اللحن!»[١٥]، وهذان وغيرهما هم من الأئمة المجتهدين المشهورين الذين عاشوا في عصر الفصاحة والبلاغة وليس في زماننا هذا الذي تعجّم فيه كلام الناس ونسوا اللغة العربية!

---

[١١] تأويل مختلف الحديث (ط المكتب الإسلامي – م. الإشراق (١/١٣٥)).

[١٢] الكفاية في علم الرواية (ط العلمية (١/ ١٨٧).

[١٣] انظر الجواهر المضية في طبقات الحنفية (١/ ٤٥٦).

[١٤] الفقيه والمتفقه (ط ابن الجوزي (٢/ ٥٥)).

[١٥] الفقيه والمتفقه (ط ابن الجوزي (٢/ ٥٥)).

وهذا لا يعني أنَّا نريد أن نفتح مخرجًا لكل لاحن أو نستهين باللغة العربية أو نريد التزهيد في تعلم اللغة العربية أبدًا، بل اللغة العربية وعاء المعرفة ومن أهم علوم الآلة التي يستعان بها على فهم النصوص الشرعية، ولكن اللّحن والخطأ أمر طبيعي لم يسلم منه أقحاح العرب؛ خاصةً في الخطاب الارتجالي.

ثم لا ينفع الرجل علمه باللغة العربية وضبطه للإعراب إذا كان مضيعًا للعقيدة والتوحيد وأصول أهل السنة والجماعة! قال مالك بن دينار: «تَلْقَى الرجل وما يلحن حرفًا، وعمله لَحْنٌ كلُّه»[١٦].

والمصيبة الأعظم أننا نجد هؤلاء المتفَيْقِهِيْنَ الذين يُعيبون على العلماء وطلبة العلم هم أنفسهم يجهلون أبسط قواعد وأبجديات اللغة العربية إعرابًا وإملاءً، ثم هم يتكلمون في طلبة العلم والعلماء!

يا صـــاحب العقل القصـــير مجاله	رفقًا بنفسك يا فتى لا تفجـــــــر
فإذا أتاك النقل من قول النبـــــي	أو صحبه أمسك فذاك الأوقـــــر
فدع التفيقه والتحذلق جانبـــــا	والزم بما قالوا وما قد عبـــــــّروا

يا طلاب العلم إن عملتم بالرخص فمن يأخذ بالعزيمة؟

إن الذين يكتمون الحق على صنفين هما: صنف كتموه خوفًا من عواقب الجهر به، وصنف كتموه لأنه يتعارض مع مصالحهم ومنافعهم. وقد حمل القرآن الكريم حملة شعواء على الصنفين، فلقد جاءت آيات التحذير والوعيد الشديد تترى في الذين يكتمون ما آتاهم الله تعالى وأمرهم بتبليغه للناس ورفع الجهل عنهم، فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (174) أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤-١٧٥]، إذ جرّ هؤلاء بسكوتهم على الدين مطاعن، وحرصوا على مصالحهم ومنافعهم، ممّا كان سببًا رئيسيًا في جهل جموع غفيرة بدين الله تعالى وكفرهم به جهلًا.

[١٦] انظر اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ط المكتب الإسلامي (١/ ٩١)) برقم: (١٥١).

فكلما انحرفت الأمة وبعدت عن الدين والتوحيد فعندئذ لا يجوز أبدًا الأخذ بالرخص وكتمان الحق وما أنزل الله، إذ أن الكتمان والسكوت في هذه الحالة يُعتبر جريمة كبيرة في حق الدين والأمة، حيث لا يجد الدين من يقوم بأمره وينصره ويصدع بالحق، ولا تجد الأمة من يبيّن لها ويهز فطرتها المنتكسة ويوقظ مشاعرها ويقيم عليها الحجة ويُركبها في سفينة التوحيد والنجاة حين يغرق الناس في لجج الشرك وعبادة الأنداد والطواغيت.

لذلك فكان لزامًا على من حملوا أمانة العلم أن يبلغوها للناس في زمن الفتن؛ الذي يجدر بالعالم وطالب العلم فيه أن يترك التشبث بالرخصة وأن يأخذ على نفسه بالعزيمة ويصبر على أذى الدعوة إلى الله؛ كما صبر قبله من العلماء الذين أُوذُوا ولعبت سوط الجلاد على ظهورهم، والنصوص الواردة في الصبر على الأذى في سبيل الله لا يكاد يحصيها العاد كثرة.

طالب الحق وصاحب الهوى:

إذا ما قلت لطالب الحق: «أخطأت»؛ بدليل كذا وكذا أو خالفت من الأدلة والنصوص كذا وكذا، فإنه سرعان ما يتوب ويرجع ولربما يفرح ويحبك لنصحك إياه، كيف لا وهو باحث عن الحق وطالب له والحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها، فتلك هي علامة طالب الحق.

بينما إن قلت لصاحب الهوى: «أخطأت» وبينت له خطأه وسردت له من الأدلة والبراهين المحكمة الصريحة القاطعة فإنه لن يقبل منك وسيعرض عنك ويتجاهلك، بل ولربما يغضب ويشتد، فهو يظن أن عقله كامل تمام الكمال ولا يرضى أن تتهمه بالنقص!! فتلك هي علامة صاحب الهوى.

حمل المطلق على المقيد:

إذا ورد نص شرعي أو حكم قرره العلماء اللفظ فيه مطلق، وورد الحكم ذاته في موضع آخر ولكن مقيد بقيد، فإن كان موضوع النصين واحدًا بأن كان الحكم الوارد فيهما متحدًا، و العلة التي بُني عليها أصل الحكم متحدة، حُمِل المطلق على المقيد، وهذه قاعدة مقررة عند علماء الأصول أسموها [قاعدة حمل المطلق على المقيد] أي: كان المراد من المطلق هو المقيد لأنه مع اتحاد الحكم والسبب، لا يتصور الاختلاف بالإطلاق والتقييد، فيكون المطلق مقيداً بقيد المقيد.

ومن أمثلة ذلك في كتاب الله قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]، فهنا ورد لفظ التحريم مطلقًا، أي يفهم منه كل الدم حرام حتى الذي يخالط اللحم والعروق،

وجاء لفظ التحريم مقيداً في قوله تعالى: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ﴾ [الأنعام: ١٤٥]، فقُيّد التحريم بالمسفوح، والدم المسفوح هو الذي يخرج من الذبيحة عند الذبح.

ومن أمثلة ذلك في كلام أهل العلم: إطلاقهم تكفير المتوقف في الجهمية في مواضع وتقييد الحكم بـ [العلم والفهم] في مواضع أخرى فيحمل ما أطلقوه على ما قيدوه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.